

صالح المغربي (1934 - 1993)

في 27 فيفري 1993 اختطفت يد النون صالح المغربي وهو في عز العطاء مخلفاً في نفوس أقاربه وأصدقائه وزملائه وتلامذته اللوعة والأسى، إثر مرض خبيث لم يمهله منذ ظهرت أعراضه الأولى سوى سنة وبعض السنة.

ولد صالح بن محمد المغربي في 18 نوفمبر 1934 بتونس العاصمة - نهج عبد الوهاب بباب الجديد - من أسرة أصيلة منزل تميم بالوطن القبلي. كان والده يتعاطى التجارة، أما جدّه الحاج صالح فكان من شيوخ الزيتونة وقد تتلمذ عليه، من جملة من تتلمذ، الشاعر الشهير جلال الدين النقاش.

دخل صالح المدرسة الابتدائية التابعة للصادقية سنة 1938، ثم أجبرته ظروف الحرب العالمية الثانية على قضاء سنة 1942 - 1943 بمنزل تميم، وعاد إثرها إلى نفس المدرسة وتحصل منها سنة 1947 على شهادة الدراسة الابتدائية كما نجح في مناظرة الدخول إلى السنة السادسة، فالتحق بالمعهد الصادقي حيث تتلمذ على عدد من أعلام أساتذة هذا المعهد ومن بينهم الأستاذ الشاذلي بويحيى والمرحومان الصحيبي فرحات والشيخ محمد الفاضل ابن عاشور. وقد نال في سنة 1951 شهادتي «البروفي العربي» (Brevet d'arabe) و«بروفي» دراسات المرحلة الأولى (B.E.P.C.). وبعد سنتين نجح في امتحانات الجزء الأول من

الباكالوريا والديبلوم الصادقي، وتوّج دراسته الثانوية بالجزء الثاني من البكالوريا سنة 1954. والتحق إثرها بالتعليم فعيّن معلما بمدرسة نهج فوبان (Vauban) - شارع علي طراد حاليا - حيث درّس سنة 1954 - 1955. وكان يعدّ في أثناء هذه السنة الشهادة التمهيدية للإجازة (Propédeutique) في معهد الدراسات العليا بتونس، ونجح فيها ثم عيّن في سنة 1955 - 1956 معلما بالمدرسة الابتدائية بنهج قاروس بباب الخضراء.

سافر إلى فرنسا سنة 1956 لمواصلة دراسته الجامعية فقبض في ثمانين سنوات انتقل فيها من ديجون (Dijon) إلى بيزنسون (Besançon) فإلى باريس من 1956 إلى 1960. ومن كلية الآداب ببيزنسون تحصل على شهادات الإجازة في اللغة والآداب الإنكليزية : الدراسات العملية سنة 1957 وفقه اللغة سنة 1958 والأدب سنة 1959. ثم انتقل إلى أكس أون بروفانص (Aix-en-Provence) فقبض فيها سنتين نجح في الأولى منهما في شهادات الإجازة الثلاث في العربية وفي امتحانات السنة الأولى من الإجازة في العلوم السياسية، ونجح في الثانية منهما في امتحانات السنة الثانية من الإجازة في العلوم السياسية - وكان من أساتذته في هذا الاختصاص المؤرخ الفرنسي الشهير جورج دوبوي (Georges Duby) - وفي ديبلوم الدراسات العليا (D.E.S) برسالة عن رواية زينب لمحمد حسين هيكل. وعن هذه الرسالة منحته مدينة أكس جانزة أفضل طالب لسنة 1961 - 1962. وكان المؤرخ الفرنسي المختص في تاريخ المغرب روجي لي تورنو (Roger Le Tourneau) من أساتذته في كلية أكس فسعى إلى تعيينه أستاذا في المعهد العسكري بهذه المدينة، وهكذا كان صالح يشغل خطة أستاذ عربية في هذا المعهد مدة السنتين اللتين قضاهما في أكس وهو يتابع دراسته الجامعية الثرية المتنوعة المشارب والاهتمامات.

ثم عاد إلى باريس لإعداد مناظرة التبريز في العربية من جامعة السربون ولكنه لم يتقدم للمناظرة في دورة 1963 لبعض الظروف الخاصة ونجح فيها في الدورة الموالية سنة 1964 حين تقدم لها. وشغل وهو يعد التبريز في السنتين خطة مكرر بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس. وكان تعرف في إقامته الأولى بباريس على فتاة فرنسية من السفوا العليا (Haute Savoie) وتزوج بها في أّس سنة 1960 ورزق منها بابنته منية سنة 1962 بأّس كذلك وبابنه هشام سنة 1963 .

كان صالح يرجع كل صانفة إلى تونس لقضاء العطلة الصيفية ولكنه قضى السنوات الأربع الأخيرة من إقامته في فرنسا دون الرجوع إلى أرض الوطن، فلما عاد مبرّزا عيّّن أستاذًا بالمعهد الثانوي للذكور بالمنستير وبقي في هذه الخطة أربع سنوات عيّّن إثرها سنة 1968 مساعدا للتعليم العالي بمدرسة ترشيح الأساتذة المساعدين - وكانت وقتها المعبر شبه الضروري إلى الجامعة - فعمل بها ثلاث سنوات مدرّسا ومرشدا بيداغوجيا. وفي أكتوبر 1971 التحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس وارتقى في جوان 1973 إلى رتبة أستاذ مساعد. وقد شرع منذ التحاقه بالتعليم العالي في إعداد أطروحة دكتورا دولة عن بني زيري تحت إشراف صديقه لي تورنو، إلا أن وفاة أستاذ المشرف وعدم اتفاقه مع مؤرخ الشام كلود كاهين (Claude Cahen) على الإشراف على نفس الموضوع جعلاه يغيّر وجهته فيعد رسالة عن رحالي المغرب الإسلامي من القرن السادس / الثاني عشر إلى القرن الثامن / الرابع عشر تحت إشراف أندري ميكال (André Miquel). وقد ناقشها بباريس في 3 جويلية 1986 ونالها بدرجة مشرف جدًا، فكان تأخر موعد المناقشة بثلاثة أيام عن موعد تقديم الترشيحات لرتبة أستاذ محاضر سببا في أنه لم يرتق إلى هذه الرتبة إلا في أكتوبر 1987. وأخيرا ارتقى إلى رتبة أستاذ التعليم العالي قبل وقاته ببضعة

أسابيع. وفي الأثناء انتخبه زملاؤه في قسم العربية بكلية الآداب بمنوبة في أبريل 1990 مديرا لقسمهم، وتوفي وهو يشغل هذه الخطة، وكان في السنة الأخيرة من حياته يتابع نشاط القسم وهو على فراش المرض يعاني ويلاته ويسعى إلى الاضطلاع بمهامه في الفترات القصيرة التي يمهلها فيها الداء.

إن كل الذين عرفوا صالح المغيربي عن كثب يقدّرون فيه الجامعي الحريص على صرامة التكوين، الكاره للرداءة والسهولة، الغيور على القيم الجامعية، وقد تجلّى ذلك في كل المناسبات التي كان الاضطراب الذي يسود الحركة الطلابية يهدد فيها سلامة التكوين أو التي كانت القرارات والمبادرات السياسية تمس فيها من حرمة الجامعة واستقلاليتها. وإن إيمانه الراسخ بهذه القيم هو الذي كان يوجّه مواقفه وهو يناضل في صفوف نقابة التعليم العالي والبحث العلمي التي كان من أوائل المنخرطين فيها منذ تأسيسها وحين تولى الكتابة العامة لفرع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس التابع لهذه النقابة. لقد كان - وهو الحاد الطبع - يحسن الاستماع إلى الآراء المخالفة، إلا أنه لم يكن يحسن المجاملة والمداواة بل كان جريئا في الدفاع عما يؤمن أنه الحق والمصلحة العامة دون حسابات أو خلفيات شخصية، ولم يشنه عن مواصلة النضال النقابي إلا سلوك بعض الفئات التي كانت تمارس المزايدات وتسعى إلى توظيف العمل النقابي لغير ما جعل له. وكان ما عرف به من كفاءة ونزاهة هو الذي أهله لينال ثقة زملائه حين رشحوه لعضوية اللجنة العلمية للكلية، فكان صاحب التحاليل التي تتناول جواهر الأمور والآراء المسموعة في الظروف العصيبة، لأن الجميع يعلم أنه لا يرمي إلى مصلحة ذاتية ولا يسعى إلى الإساءة إلى شق معين ولا إلى تملق شق آخر، بل كان ديدنه الوفاء لمبادئه بقطع النظر عما عسى أن يترتب عن هذا الوفاء من سوء فهم أو من سوء تقدير.

لقد كان بحكم تكوينه المتين ينفر النفور كله من المعرفة التقريبية والعبارات الجوفاء ويحترز الاحتراز كله من «الصيحات» و«التقليعات» العابرة المرادفة للسهولة أو الجهل، دون أن يمنعه ذلك من متابعة النظريات الجديدة والمقاربات الطريفة في العلوم الإنسانية، ولذا لم يكن يرضيه من طلبته غير المعلومات الدقيقة الموثقة. وكل الذين درسوا عليه في مستوى السنة الثانية أو في مستوى شهادة الحضارة من أستاذية العربية أو الذين أشرف على رسائلهم في نطاق شهادتي الكفاءة والتعمق في البحث أو ساهم في لجان مناقشة رسائلهم، كل هؤلاء يشهدون بأنهم تعلموا منه البحث الجاد والمنهج السليم والعرض الواضح.

ولعل هذه الخصال وحرصه على الكمال مع ما كان يعانيه من ضعف في البنية ومشاكل صحية عرضية أو مزمنة هو السبب في أن إنتاجه العلمي لم يكن غزيرا، فلم يكتب بالإضافة إلى رسائله الجامعية عن رواية زينب وإلى أطروحته عن رحالي المغرب الإسلامي سوى تقديم الرحلة العبدية بتحقيق محمد الفاسي (حوليات الجامعة التونسية، العدد التاسع، 1972، ص ص 281 - 286) وتقديم كتاب حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (العدد نفسه، ص ص 287 - 291) وفصل بعنوان «الترجمة الذاتية وفن الرحلة في التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» (العدد العاشر من الحوليات، 1973، ص ص 73 - 86. كما كتب البحوث الثلاثة التي يحتويها هذا العدد وهي :

- الجغرافيا البشرية، اتجاهاتها وأعلامها
 - النظم والمؤسسات الإسلامية
 - نظرة الرحالة المسلمين إلى البلاد الأجنبية : أخبار الصين والهند
- أنموذجا.

وقد قام صحبة الفقيه صالح القرمادي بتدريس تقنيات الترجمة تعريبا ونقلا باللغة الإنكليزية، ثم تولى تقديم هذا الدرس بالفرنسية بعد وفاة زميله لمدة تسع سنوات كاملة ضمن شهادة اختيارية. وقد شرع في تعريب درسه قصد نشره ولكن المنية لم تمهله.

رحم الله صالح المغربي مثالا للكفاءة والشهامة وستبقى ذكراه الطيبة حية في نفوس جميع الذين عرفوه.

عبد المجيد الشرفي